

# آرثر رامبو فضل في الحميد



ترجمة  
رئيس يونان





فضل في الجحيم

- \* اسم المؤلف : آرثر رامبو.
- \* اسم المترجم : رمسيس يونان.
- \* عنوان الكتاب : فصل في الجحيم.
- \* الناشر : دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت.
- \* الطبعة الثانية ، 1998.
- \* جميع الحقوق محفوظة .
- \* التنفيذ الضوئي : بيروت برس.
- \* تدقيق النص : محمد أحمد الحسيني.
- \* تصميم الغلاف : سلمى الفاروقي.
- \* خطوط الغلاف : مصطفى العمري.
- \* أفلام الغلاف : كامل جرافيك.

آزشر رامبو

# فضل في الجحيد

ترجمة  
مُسيّر يرنان

الهيئة العامة	
٨١١	رقم التكملة
٣١٨٥٤	رقم التسجيل

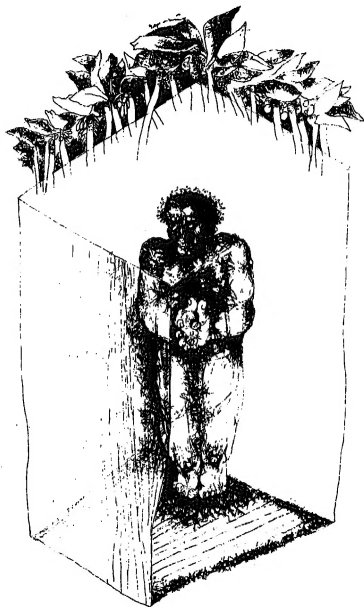


General Organization of Library, Archives and Documental Affairs  
National Library and Archives



*Bibliotheca Orientalis*

الرسوم: بشار







## مقدمة

عرفت رمسيس يونان في عنفوان شبابه بمناسبة انتخابات سنة ١٩٤٢ لمجلس النواب. عرفته فنانا ثورياً يأبى المحاكاة الواقعية والانطباعية وغيرهما من المدارس الفنية السائدة في مصر حينذاك. كما عرفته كاتباً ثورياً يرفض أساليب الأدب المألوفة عربية كانت أم تقليداً للغرب، ومفكراً سياسياً ثورياً لا يقبل الشعارات السياسية في الأحزاب المشروعة، ثائراً على الثورية نفسها، باحثاً باستمرار عن موقف في الفن والأدب والسياسة يجد نفسه فيه غير متافق ولا مفتر ولا متقاد. هذا هو رمسيس كما أذكره - انسان مخلص أمين إلى حد التعصب لما يراه حقاً وواجباً، انسان غير مكتثر بأهواء «الموضة» الثقافية قانع بالفقر والوحشة في سبيل رؤيا ذاتية أصيلة من املاء ضميره الحي.

لوحاته سجل لمغامرة فنية بين أدغال الغيب وكهوف النفس الدفينة، ومع ذلك فإن اهتماماته الواعية بالعمل السياسي وبالكتابة كانت دائماً متصلة بواقع بلاده وبقضايا بناء مجتمع عادل. لقد عرف قدر الثروة الكامنة في أصالة مصر في نفس الوقت الذي استطاع فيه أن يزن ما يمكن أن يثرىها من مؤثرات الغرب المتدفقة على وطنه والتي ذهبت بعقول بعض مثقفيها وأفعمتهم حتى نضبت ينابيع الإبداع الأصيل في نفوسهم. كان رمسيس كغيره من أبناء جيله يحاول أن يحافظ على التوازن الدقيق الصعب بين الأصالة والتجديد في نفس الوقت الذي كان يبحث فيه عن ذاته من خلال فن التصوير والصحافة الثقافية الرفيعة والترجمة الواعية لما

يفجّر مناهل جديدة في أعماق أصالته المصرية، كما التزم في ترجماته دائماً بالدقة والبلاغة في آن واحد حتى ينقل بأمانة تامة ما يريد أن يفرسه في تربة الوعي الذي ورثه عن أجداده.

وكان هذا هو المعيار الذي التزم به في اختياره لما يترجمه من أعمال اندريه مالرو وبول اليوار وغيرهما ممن شكّلوا حساسية القرن العشرين.

نمّ مات رمسيس كهلاً قبل أن يبذل قصارى جهده مخلفاً وراءه أعمالاً فنية تُعتبر بمثابة وصية فلسفية لأجيال مصر الصاعدة، وكتابات من المقال والشعر تُعتبر رحلات كشف لمن يريد أن يسبر غور نفوس المثقفين المصريين في العقد القلق المستمر الذي امتد من أوائل الحرب العالمية الثانية إلى ما بعد حرب فلسطين الأولى، أو بعبارة أخرى من الولوع بالتفكير الثوري الدولي الذي لازم الحرب الأهلية في إسبانيا إلى البحث عن الذات والصراع من أجل الوجود المحلي.

ولقد تضمن ما خلفه لنا رمسيس يونان ترجمة مخطوطة لم تُنشر في حياته للقصيدة النثرية التي ختم بها آوثور رامبو حياته الأدبية قبل أن يكفّ عن الكتابة إلى أن قضى نحبه. تُرى لماذا اختار رمسيس هذا النص الصعب الأليم الذي يغوص فيه الشاعر الفرنسي إلى أعماق حياة قلقة آتمة معقدة في البحث عن معنى للحياة مجرداً نفسه من كل لبس ورياء ومغالطة كي يرى الحقيقة مهما ألتهم؟ وإنّي لأعتقد أن هذا المنهج في بحث الشاعر هو نفس ما اتبعه رمسيس في التصوير، ولوحاته كلها لا تخاطبنا إلّا من عمق غائر دفين تجرّدت فيه النفس عن كل ما يخفيها عن نفسها، وصاحت بصيحتها بأمانة مطلقة وأمل مطلق تولّد من مجابهة الناس والالم والذات بصدق وأمانة. والصورة مثلها مثل القصيدة، اعتراف ولكنها اعترافان للذات لا ما هو خارج عنها. إذ لا يهم المصور هنا كما لم يهم الشاعر هناك

سرى الصدق - فلا يههما نظارة ولا قراء، ومع ذلك ففنها يخاطب كل فرد حي واجهته الغاز الفناء وحيرة الوجود.

هذا في رأيي هو ما دفع رمسيس لترجمة «فصل في الجحيم» لآرثور رامبو. وحتى نفهم ولع رمسيس بهذا النص لرامبو يجدر بنا أن نعرف ما جعل الشاعر يختم حياته الأدبية بهذا النص، ثم مال به إلى التجارة والمغامرة في الحبشة والصومال دون أن يلتفت ولو مرة واحدة لماضيه كشاعر شاب فذ.



ولد آرثور رامبو سنة ١٨٥٤ في مدينة صغيرة شمال شرقي فرنسا اسمها شارلفيل حيث تعلّم بمدرستها الابتدائية والثانوية، ولكنه سرعان ما ملّ دراسته وأخذ يهيم على وجهه في الأرياف هارباً من المدرسة ومن جو الأسرة. كان أبوه ضابطاً متقاعداً يعيش في قلق مستمر بجوار زوجته وهي فلاحنة غنية متمتعة بالثروة والرفاهية. وذات يوم هجر الأب منزله ولم يره أحد من أسرته بعد ذلك. أما الصبي النابغ آرثور فكان يكتب الشعر حيناً ويقرأ مؤلفات الفلاسفة الاشتراكيين، حيناً آخر، وكثيراً ما كان يخطف أياً ما يأكملها متجولاً في القرى والريف هارباً من ملل حياته. ومع ذلك فقد أشعل في نفسه شعلة الفكر تعرّفه في المدرسة على مدرس شاب اسمه جورج إيزامبار كان يعطيه كتب الشعراء والفلاسفة ليقرأها ويثير خياله بالمناقشات في الدين والجنس والسياسة. وكان ذلك سبباً دفعه للهروب مرة أخرى إلى باريس سنة ١٨٧١ أي بعد سقوط الامبراطور نابليون الثالث عقب هزيمة جيوشه على يد الجيوش البروسية. وأحسّ رامبو بحماسة شديدة للحكومة الكومون La Commune الاشتراكية التي عاشت حياة قصيرة في شوارع باريس المهزومة المحاصرة،

وأخذ يكتب شعراً كله ثورة ضد الأوضاع السياسية وتمجيد للصراع الثوري. ثم أرغمته أمه على العودة إلى البيت فعاد مرغماً وقلمه يقطر شعراً، ثم اكتشف في نفسه ميولاً جنسية تضعه على هامش المجتمع آنذاك بل تجعله ينفر من كل علاقة عائلية. وتتوق نفسه رغم شبابه إلى الهروب مرة أخرى واللجوء إلى الحانات وحياة الشاردين. وكتب أشهر قصيدة له في ذلك الوقت «القارب الثمل» ودون فيها كل ما في قلبه من حيرة وثورة وشعور بالاثم والتماس الحرية والتحرر. وكان ذلك أيضاً هو الوقت الذي عرف فيه بول فرلين وكان رامبو قد أرسل إليه نسخة من «القارب الثمل». وفجأة عشق فرلين القصيدة وصاحبها عشقاً دفعه إلى أن يضرب بكل شيء مقدس عرض الحائط — فهجر أسرته هو بدوره بل هجر عروسه الفتية ليشرد مع رامبو شروداً في صداقة صاخبة ذهبت بها إلى طرقات المدن يتمتcan الأشعار ويشعلان ويتسامران معاً بعيدين عن قيود الأسرة والمجتمع، يزوران انجلترا حيناً ويلجيكاً حيناً، يتشاجران حيناً ويتصالحان حيناً آخر كل منهما مصمم على هدم الآخر رغم ما بينهما من عشق عميق بل بسببه. وفي ليلة من الثمل والعتاب اللذين منبتهما الحب يصبوب فرلين مسدساً إلى صديقه ولكن الرصاصة لا تصيب مقتلأ منه بل تخدش كفه فيقبض على فرلين ويحكم عليه بستتين في السجن، ويعود رامبو إلى أمه ويلدته بائساً مستاء يبحث من خلال قصيدة ثرية طويلة عن سر ذلك الشيطان اللعين الذي يدفعه إلى ادغال الشعر والاثم والهروب والصخب دفعا. وبعد أن كتب اعترافه هذا سنة ١٨٧٣ انقطع عن الأدب انقطاعاً نهائياً، وقام بسلسلة من الرحلات العقيمة بعيداً عن ذكريات مأساة شبابه. بدأ بألمانيا حيث حاول أن يتعلم الألمانية وأن يعمل تاجراً، ثم ذهب إلى هولندا حيث تطوع جندياً بسيطاً في الجيش وأُرسل إلى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا الآن) ولم يطق حياة الجندي في الشرق فهرب وتطوع بحاراً في سفينة شراعية كانت راسية في ميناء باتافيا (جاكارتا اليوم) وأبحر عليها حتى عاد إلى فرنسا حيث قضى ليلة رأس سنة ١٨٧٧ مع أسرته في شارلويل.

ثم دفعه شيطان الحرب ثانية، فأخذ يهيم على وجهه في النمسا وهولندا والسويد وسويسرا، تارة عاملاً وتارة عاطلاً، تارة راكباً وأخرى ماشياً ودائماً جائعاً. وفي نوفمبر سنة ١٨٧٨ أبحر إلى جزيرة قبرص حيث عمل ملاحظاً لمقاولة بناء، ومرض بالتيفوئيد فعاد إلى فرنسا، ثم أبحر إلى الاسكندرية ولم يجد عملاً في مصر (ولكن يبدو أنه وصل إلى الأقصر بدليل أن اسمه منقوش هناك على أحد أعمدة معبد الأقصر)، فأبحر إلى عدن حيث عمل في متجر فرنسي ومن هناك أرسل إلى مدينة هرر في أثيوبيا ليفتح فرعاً لهذا المتجر. وتعلم العربية والسواحلية وبدأ يعلم نفسه فنون الهندسة من كتب كانت ترسلها إليه أمه من فرنسا بين حين وآخر. وفي سنة ١٨٨٢ سمح له أصحاب الشركة التي كان يعمل فيها أن يذهب منفرداً إلى صحراء الأجادين، وأن يكتب تقريراً علمياً عنها فكتبه بالفعل وأرسله إلى جمعية الجغرافيا الفرنسية. ولعل هذا التقرير (فيما عدا الخطابات التي كان يرسلها إلى أسرته) هو الشيء الوحيد الذي كتبه بعد أن هجر الأدب. ثم تغير مجرى حياته من جديد، واتصل بالامبراطور الاثيوبي منليك الأكبر، وأعد القوافل ليمدّ الامبراطور بالمدايع والبنادق وقيل أيضاً أنه كان يتاجر في الرقيق مع عرب السواحل والامبراطور الحبشي الذي لم يدفع ثمنهم والمهم أنه لم يترك مجالاً ليثبت فيه قدرته على العمل والنجاح، ولكن سرعان ما أصيب بالآلام شديدة في ساقه اضطرتة للرحيل إلى فرنسا، وما أن وصل مرسيليا حتى دخل المستشفى حيث بُترت ساقه ثم مات بالمستشفى يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٨٩١ في السابعة والثلاثين من عمره.

حياة قصيرة حائرة ثائرة — شاعر ملهم يصبح جندياً فتاجراً فرحالة، وشيطان الهروب يحثه باستمرار على تغيير مهنته والبحث عن المستحيل والغريب في حين أن شعلة المستحيل تحترق داخل نفسه. ترى عَمَّ كان يبحث؟ الجواب السريع هو نفسه، ولكن الواقع أن بحث هذا الشاعر الذي أثر في كل الشعر الأوروبي الحديث هو بحث عن أسلوب

في الحياة يسمح له بمطلق الحرية ومطلق الصدق. وربما المهم في كل ذلك أنه كان يبحث عن الصدق من خلال صيغ مختلفة خاتمه كل منها بدوره، لأن الصدق بالنسبة لرامبو لم يكن المواجهة الصريحة مع الواقع وإنما هو الغوص في أعماق النفس والبحث فيها عن مناظر لم ترها العين المجردة، وعن أصوات لم تسمعها الأذن. فالشعر عنده سجل الحلم خاص. ألم يقل إن الخيانة التي كان يراها على ضفاف ترعة عكرة الماء هي مسجد شامخ يطل على نهر متألق؟ وكان يقول أيضاً «أما العالم متى خرجت منه فماذا يحدث له؟ لا شيء قطعاً يتغير من مظاهره الحالية» فعالم الحلم عنده عالم مكتمل، له منطق غير منطقي وقواعد غير قواعدنا وفيه ضرورة ترحي بحتية أحداث الحلم. ولما اقترن حلمه بالكلمة المنطوقة جعل لغته الشعرية تمزج بين الخواص. فبدأ قصيدة مشهورة باعطاء ألوان لأصوات اللين في اللغة وهذا ما يذهب بنا إلى القول بأن منطق الكلام لم يكن فعالاً عند رامبو بقدر ما نفعه منطق الأحداث والمحاورات في حلم كمين في النفس. فالبحث على هذا النحو عن صدق مطلق يختلف فيه رامبو الشاعر (والجندي وتاجر السلاح والرحالة والشارد) عما اصططح عليه المجتمع البشري في محاوراته وتأملاته المألوفة. ومع ذلك فهو أقوى مؤثر (مع فولين) على مدرسة الشعراء الرمزيين في فرنسا.

ولا يفوت أحداً أن مثل هذا المنطق الخالم قد يكون عائقاً لفهم القارئ وتجاوبه مع القصيدة اللذين هما أساس كل اتصال مفيد. ولكن هناك مع ذلك لغة ورثها رامبو لخلفه هي لغة الأيحاء اللفظي الموسيقي التي تعتبر أساس الاتصال بين الشاعر والقارئ، أي اتصال بين حساسيتين حيث تكون الأداة هي الأيحاء من خلال موسيقى الألفاظ وشاعرية الصور. ومن ثم الاتصال الوثيق، في رأي واضعي نظريات الشعر الرمزي، بين الشعر والموسيقى. ولعل بول كلوديل (Claude) استطاع أن يبلور هذه الفكرة في مقدمته لديوان شعر رامبو الذي نشر بعد وفاته عندما قال: «إن اللغة الموجودة في وعينا تتخذ

هنا قيمة بوصفها أداة تعبير بقدر أقل مما هي إشارة، فإن الكلمات العشوائية التي تطفو إلى سطح العقل واللازمة الشعرية والعودة المتكررة لعبارة ما والرجوع المستمر للفكرة المتسلطة، كل ذلك يؤلف معاً نوعاً من التلاوة المرتلة التي تجمّد سيولة الوعي. وعندئذ تسقط ظلال الأشياء مباشرة على خيالنا وتنساب بمنزلة بتألقها وتلونها كقوس قزح».

ومن ثم نشأ، في فرنسا على الأقل، الشعر الحر الذي أصبح بمثابة تطبيق مكتوب لهذه المغامرة في دنيا الوعي والخيال.

\* \* \*

ونعود لتساءل: تُرى ما الذي دفع رمسيس المفكر المستنير الفنان إلى ترجمة هذا النص؟ من الممكن أن يجاب على هذا التساؤل بأن دافعه إلى ذلك هو التمسك بالصدق المطلق - مع نفسه ومع فنه. وهو صدق لا تشوبه مساومة ولو أدى إلى الغموض في الاتصال بالغير. ولعلّ هذا الصدق أو البحث عنه على الأقل، هو ينبوع الحي للحركة المحدثة في العالم، فهو بمثابة رومانتيكية جديدة قد تصبو إلى المستحيل كما فعلت سابقتها. أما تاريخ الشعر العالمي قبل ذلك في كل أنحاء العالم فهو بريء من تلك البدعة الرومانتيكية، إذ من عصر الملاحم وحتى حركة الكلاسيكية الجديدة كان الشعر الأوروبي بكل لغاته يهتم بالصنعة اهتماماً يعلو كل اهتمامات الصدق أو الإلهام.

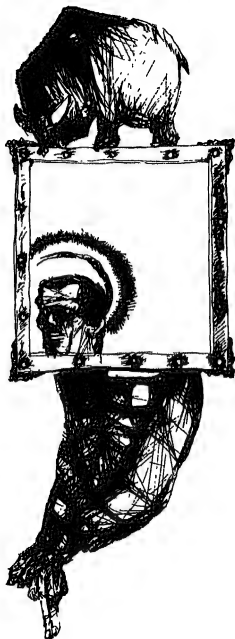
وكذلك فعل الشعر العربي خاصة عندما أغرم بالغزل ووصف الأطلال واهتم بتقنين البحور الستة عشر. وهكذا فعل أيضاً الشعر

الياباني في «الهايكو»، وشعراء افريقيا جنوب الصحراء في ملاحمهم ومداثهم التي تلتزم أوضاعاً نظمية متفقاً عليها.

فصرخة الصدق كانت في كل التقاليد الشعرية تلتزم بانضباط النظم وتصب في مقامات الصيغ الشعرية إلا في عهديين: عهد الرومانتيكيات الأوروبية، وفي عصر ما بعد رامبو في العالم أجمع حين واجه شعراء عصرنا هذا مخاطر الصدق المطلق الذي قد يصل إلى غموض، كما واجهها رمسيس في لوحاته التي لعبت دور الريادة في فن التصوير المصري المعاصر.

مجدي وهبه







في سالف الأيام، ما لم تخفي الذاكرة، كانت حياتي وليمة تفتتح  
فيها كل القلوب، وتسيل كل الخمور.

وذاث مساء، أقعدت الجمال على ركبتَي - فالفيتة مرّاً - فهجوته،  
وتسلّحت ضد العدالة.

وهربت. أيتها الساحرات، أيتها البؤس، أيتها البغض، أنتم  
مستودع كنزي!  
وتوصّلت إلى محو كل أمل انساني في نفسي. كل بهجة، أخفقتها،  
ووثّبت وثبة وحش مفترس.

ودعوتُ الجلادين كي أقضم، ساعة فنائي، خشب بنادقهم.  
ودعوتُ البلايا كي تكتم أنفاسي بالرمل والدم. كان النحس إلهمي.  
واستلقيت في الوحل. وتحففت بهواء الجريمة. وكثيراً ما داعبت الجنون.  
ولم يجلب لي الربيع سوى ضحكة الأبله الشعاء.

لكن، من عهد قريب، إذ وجدت أني موشك على لفظ آخر  
شهقاتي، فكرت في البحث عن مفتاح ولّيمتي السابقة، علّني استردّ  
شهتي.

المحبة هي هذا المفتاح - هذا الوحي يثبت أني كنت أحلم!

«استظل ضبعاً الخ...» هكذا هتف بي الشيطان الذي توجّني  
بازهار الحشخاش الجميلة. «أدرك الموت بكل شهواتك، وأنايتك،

وجميع الآثام التي لا تُغْتَفَرُ.

آه! لقد تحمّلت أكثر مما يُطَلَقُ: — ولكن، أيا إبليس العزيز،  
أتوسّل إليك، نظرة أقل شزراً! وفي انتظار الحسائس الصغيرة المتوقعة،  
انتزع لك، أنت يا مَنْ تحبُّ في الكاتب التجرد من ملكّات الوصف أو  
الارشاد، هذه الصفحات البشعة القليلة من كراسة لعينٍ رجييم.

## عرف خبيث

ورثت عن أجدادي الغاليين العين الزرقاء البيضاء، والعقل الضيق، والخرافة في القتال، إنني أرى ملبسي لا يقل عن ملبسهم بربرية. لكني لا أضع دهنًا في شعري.

كان الغاليون في عصرهم أقل الناس براعة في سلخ جلد الحيوان وحرق الحشائش.

وعنهم أخذت: الوثنية والولع بانتهاك الحرمات، بل كل الرذائل، الغضب والشبق، — يا لروعة الشبق؟ — وعلى الأخص الكذب والكسل.

جميع الحرف تفزعني. السادة والعمال، جميعهم فلاحون، شائنون. اليد ذات اليراع لا تفضل اليد قائدة المحراث — يا له من قرن يدوي! — لن تكون لي يدي. وبعد، لا يقف الامتحان عند حد. ثم إن أمانة الشحاذة تفجعني. والمجرمون كريبون كالحصيان: أما أنا، فلم أمس، وكل هذا لديّ سواء.

ولكن! من الذي جعل لساني من الغدر حتى لقد أراد وصان لليوم كسلي؟ فدون أن أستخدم في سبيل العيش حتى جسدي، ومع بطالتي التي تفوق بطالة الضفدع، عشت في كل مكان. ما من أسيرة في أوروبا لا أعرفها

— أعني الأسرات، كأسرتي، التي تدين بكل شيء لاعلان حقوق  
الانسان. — عرفت جميع أبناء الأسرات!

\* \* \*

لو أن لي أشباه سالفين في أي وقت كان من تاريخ فرنسا !  
لكن كلا البتة.

ومن الواضح أني كنت دائماً من سلالة منحطة. فالتنمرد يسمو  
على ادراكي. ولم تهبّ سلالتي قط إلا لتنهب. فعل الذئاب مع  
الفريسة التي لم تقتنصها.

إنني أحفظ تاريخ فرنسا، بنت الكنيسة البكر. وكان بوسعي،  
أفاقاً، أن أحجّ إلى الأرض المقدسة؟ وفي ذهني طرق تتخلل سهول  
بافاريا، وصور من بيزنطة، وقلاع في اورشليم، التسييح بمريم  
والتحنن على المصلوب يستيقظان في قلبي وسط ألف من المفاتن  
الدنيوية — إنني قاعد، مجزوماً، على القدور المحطمة وأوراق  
القرىض. بجوار حائط نخوته الشمس — وكان بوسعي، متشرداً، أن  
أنزع بعد ذلك إلى العراق تحت سماء ألمانيا.

آه! وأيضاً: أرقص السبت بمهرجان الصحرة في ساحة حمراء  
وسط الاحراج مع عجائز وأطفال.

ولا تذهب ذاكرتي إلى أبعد من هذه الأرض ولا من  
المسيحية. لن أنتهي من رؤية نفسي في ذلك الماضي.

لكني كنت دائماً وحيداً، بلا أسرة، بل بأي لسان كنت  
أتكلم؟ لا أتصور نفسي قط في مجلس المسيح؟ ولا في مجلس  
الأرباب - ممثلي المسيح.

وماذا كنت في القرن الماضي. لم أفق لنفسي إلا اليوم. لم يعد  
ثمة أفاقون ولا حروب غامضة. لقد غمرت السلالة المنحطة سطح  
الأرض - الشعب، كما يقولون، والعقل، الأمة والعلم.

يا للعلم! لقد بدأوا من جديد كل شيء. للجسد والروح،  
- القربان المقدس، - لدينا الطب والفلسفة، - وصفات العجائز  
والأهازيج الشعبية مصنفة مرتبة. ثم تسليات الأمراء والألعاب التي  
حرّموها! الجغرافيا، والكسوموجغرافيا، والميكانيكا، والكيمياء.

العلم، الحسب الجديد، التقدم. الدنيا تسير! فلماذا لا  
تدور؟

إنها رؤيا الأعداد. إننا نسير نحو الروح. هذا محقق، هي  
نبوة، ما أقول. إني أفهم، ولكنني إذ لا أستطيع الانفصاح بغير  
عبارات وثنية، وددت الصمت.



الدم الوثني يعود! الروح يقترب، فلم لا يستلني المسيح بأن  
يعني النبل والحرية؟ لكن وأسفاه، لقد ولّى الانجيل! الانجيل.

الانجيل .

انتظر الله في نهم . إني من سلالة منحطة منذ الأزل .

ها أنذا عند طرف فرنسا . فلتشعل الأنوار في المدن . لقد انقضى يومي؟ ساهجر أوروبا . هواء البحر سيكوي رنقي، وستلوح بشرتي شمس المهجر . سوف أعوم، وأمضغ العشب، وأصيد، وأدخن على الأخص؟ . وأنهل الخمر المتقدة كمعدن منصهر، — مثلما كان يفعل أجدادي حول اللهب .

وسأعود، بأطراف من حديد، ببشرة سمراء، ومقلة محتمة: ومن سحتني سيحكمون أني من سلالة قوية . سأملك الذهب: سأنعم بالفراغ وأبطش . إن النساء ليحدثن على أولئك المقعدين المفترسين العائدين من البلدان الحارة . وسيصبح لي شأن في السياسة . سأنجو .

أما الآن فعليّ اللعنة، إني أفزع من الوطن . ولا أفضل لي من نومة الثمل على شاطئ البحر .

\* \* \*

لا رحيل . — فلاعذ من حيث أتيت، مُحملاً بانمي، الاثم الذي مذ جلدوره جالية الشقاء بجواري، مذ بلغت سن الرشد — والذي يصعد إلى السماء، فيقهرني ويوقعني ويمرّني .



بقية من البراءة وبقية من الوجل. هكذا قيل. لا ينبغي أن  
أحل إلى العالم مكارهي وخسائسي.

فلتقدم! لنحمل العبء ونسير نحو الصحراء والسأم  
والضجر.

لكن أكره نفسي؟ أي دابة ينبغي أن أعبد؟ على أي صورة  
مقدسة ينبغي أن أهجم؟ أي قلوب سأحطم؟ بأي أكذوبة يجب أن  
استمسك؟ - في أي دعاء علي أن أمشي؟

الأحرى تجنب العدالة. - الحياة الشاقة والاستجلاف  
المحض - بل لأرفع بيد ضامرة غطاء التابوت، وأقبح، وأختنق.  
ولذلك لن أعرف الشيخوخة ولا الأخطار: الرعب ليس فرنسيًا.

- آه! إني من الخذلان حتى لأعرض على أي صورة مقدسة  
صبوتي للكمال.

يا ثغافني! يا لمحبي الرائعة! وفي هذه الدنيا مع ذلك! De  
profundis Domine، يا لي من أحق!

\* \* \*

أعجبت، وأنا بعد صبي، بالعاصي العنيد الذي ما ترح  
أبواب المعازل أن توصل عليه من جديد؟ زرت الحانات والفنادق  
التي لعلّه قد باركها بأقامته ورأيت بفكرته السماء الزرقاء والعمل  
المزدهر في الحقول؟

واستشقت رائحة الشؤم الذي يحيط به في المدن. كان يفوق  
القديس قوة والرحالة دراية - وهو، هو وحده! الشاهد على حكمته  
ومجده.

بغير مأوى ولا ملبس ولا قوت، آفاقاً في ليالي الشتاء، كنت  
أسمع صوتاً يأخذ بقلبي المجدد: «أهلدا ضعف أم قوة: هاك، إنه  
لقوة. إنك لا تعلم إلى أين ولا لماذا تسير، فاقنح كل الأبواب،  
واستجب لكل نداء. إنك لن تقتل أكثر مما لو كنت جثة هامدة».   
وفي الصباح كانت مقتلتي من التيهان ومحياي من الشحوب، حتى  
لربما لم يبصرني أولئك الذين قابلتهم.

وفي المدن بدا لي الوحل فجأة أحمر وأسود، كمرآة حين يطوف  
المصباح في الغرفة المجاورة، أو ككنز في غابة. فصحت ما أسعد  
الطالع، ورأيت في السماء بحراً من اللهب والدخان، وعلى يميني  
ويساري، الخيرات جميعاً تحترق وتهدد كآلف مليون رعد.

بيد أنني حُرمت القصف وصحبة النساء. بل ما من رفيق.  
رأيت نفسي قبالة حشد هائج، وأمامي شرذمة الجلادين؟ أبكي  
البلية التي ما كانوا يستطيعون فهمها غافراً لهم! - مثل جان  
دارك! - «أيها الكهنة والاساتذة والأسيساد، إنكم لتضلون إذ  
تسلموني للقضاء. ما كنت قط من هذا الشعب؟ وما كنت قط  
مسيحياً؟ إنما أنا من السلالة التي تغني وقت المحنة؟ ولست أفهم  
القوانين؟ ولا حسّ خلقياً لديّ، إني وحش هيج: أتكلم لتضلون».

أجل، إن عيني لموصدتان عن نوركم. إني وحش، إني  
بربري. ولكن كان يمكن أن أنجو. أما أنتم فبرابرة زائفون، أنتم  
المتوهون المقترسون الجشعون. أيها التاجر، إنك بربري؟ أيها

القاضي، إنك بربري؟ أيها القائد، إنك بربري؟ أيها القيصر، أيها  
البرص المزمع، إنك بربري ولقد شربت من خمر مهرّب، من  
صناعة إبليس. — هذا الشعب تستغزّه الحمى والسرطان. والمقعدون  
والشيوخ هم من الوقار بحيث يدعون إلى سلفهم. — الرأي الأدنى  
أن أنزع عن هذه القارة حيث الطيش يعوس في طلب الرهائن  
لهؤلاء الأشقياء. إني ذاهب إلى المملكة الحقّة لأبناء حام.

وهل عرفت بعد الطبيعة؟ وهل أعرف نفسي؟ — كفى ثثرة.  
إني أوارى الأموات في أحشائي. صيحات، طبول، رقص، رقص،  
رقص، رقص! لست أرى حتى الساعة، ساعة نزول البيض إلى  
البر، التي سأهوي إلى العدم.

جوع، ظمأ، صراخ، رقص، رقص، رقص، رقص.

\* \* \*

البيض ينزلون. المدفع! يجب الامتثال للعماد، واللباس،  
والعمل.

لقد نغذت إلى قلبي بركة السماء. آه! وما كنت لأتوقعها!

لم اصنع شراً قط. وستصبح أيامي يسراً، ولن تكون بي حاجة  
إلى التوبة. لن أقاسي عذاب النفس شبه الميتة في وجه الخير، حيث

يرتفع النور القاسي كالشموع الجنائزية. مصير أحد أبناء الأسرات،  
تابوت قبل الألوان تغطيه دموع رقراقة. ولا جدال في أن العريضة  
حماقة، والاثم حماقة؟ ولا بدّ من قذف العفن بعيداً. ولكن لن يكون  
بومع الناقوس أن يوقف دقاته إلى أن تآزف ساعة الألم المحض! فهل  
سأحمل كطفل لاهو. في الفردوس غافلاً عن كل شقاء!

أسرعوا! هلا من حيوات أخرى؟ — الرقاد وسط الثراء  
مستحيل. فالثروة كانت دوماً ملكاً مشاعاً. الحب الالهي وحده يهب  
مفاتيح العلم. لا أرى الطبيعة إلّا مشهداً للخير. فوداعاً أيتها  
الأشباح والمثلثات والأباطيل!

غناء الملائكة العاقل يصّاعد من سفينة النجاة: إنه الحب  
الالهي. — حَبَّان! فقد أموت من الحب الدنيوي، أموت تغانياً. لقد  
تركت نفوساً سيشتد حزنها لفراقها! وقد اخترتموني من بين الغرقى؟  
أفليس الباقون صحابي؟  
فلتنتقلوهم!

لقد حلّ بي الهدى. العالم طيب. وسأبارك الحياة. وسأحب  
اخوتي. ليست هذه وعود صبية. ولا الأمل في النجاة من الشيخوخة  
والموت. الله مصدر قوتي، وإني أسبح باسم الرب.



السأم لم يعد غرامي. وسورات الغضب، والعريضة،  
والجنون، تلك التي عرفت كل نزواتها وويلاتها، — كل العبه قد

طرحته . فلنقدّر دون ذهول مدى براءتي .

لن يعود نوسعي أن أرجو العزاء من ضربة عصا على ناطق القدم . وما أخال أني في طريقي إلى زفاف ، والمسيح أباً لعروسي

لست أسير عقلي . قلت : يا رب . إني أريد الحرية في الخلاص : فكيف أدركها ؟ لقد تخلّصت من أهوائي . فلم تعد بعد بحاجة إلى تعبد ولا إلى حب الهي . وما بي حسرة على عصر القلوب الرقيقة . لكل منطقته ، زرايته ومحبه : وإني لأحتفظ بمكاني في قمة ذلك السلم الملائكي ، سلم العقل والرشد .

أما السعادة المستقرة ، المنزلية أو غيرها . . فلا ، لست أستطيع . إني شديد التفكك ، بالغ الوهن . والحياة تزدهر بالعمل ، حقيقة معروفة من قدم . غير أن حياتي ليس لها قرار ، إنها تطوير وتخلّق بعيداً فوق العمل ، هذه البقعة العزيزة من العالم .

لَكُم أصبحْتُ شبيهاً بعانس ، من خشيتي عمة الموت !

لو أن الله وهبني الهدوء السماوي ، الأثيري ، الصلاة ، — مثل القديسين القدماء . — القديسون ! يا لهم من أقوياء ! والرهبان ، يا لهم من سلاة من الفنانين من الخير أن تندثر .

مهزلة لا تنقطع ! لتوشك براءتي أن تبكي . الحياة هي المهزلة التي ينبغي أن يحركها الجميع .

\* \* \*

كفى! ها هو ذا القصاص. — فإلى الأمام!

آه! إن رثي لتحترقان، وصدغي يدمدمان! والليل يغشى عيني، في  
رائحة هذا النهار والقلب... والأطراف...

إلى أين نسير؟ إلى المعركة؟ لكني خائر القوى!

والآخرون يتقدمون. الأدوات، الأسلحة... والزمن...

الرصاصة! اقلدوني بالرصاص. هنا! وإلا استسلمت. —  
يا للجناء! — سأقتل نفسي! سألقي بنفسي تحت سنايك الخيل.  
آه!...

— سوف أتعود ذلك.

وستكون تلك هي الحياة الفرنسية، سبيل الشرف!



General Organization Of the Alexan-  
dria Library (GOAL)

*Public Library Alexandria*







## ليلة الجحيم

ابتلعتُ جرعة هائلة من السم. — فلتبارك ثلاثا النصيحة التي  
أهديتها! إن أحشائي لتحترق. شدة السم تلوي أطرافي، وتمسخني،  
وترديني. إني أموت ظمأً. وأختنق، ولا أستطيع الصياح. إنه الجحيم،  
الدينونة الأبدية! انظر كيف يساعد اللهب. إني لأحترق كما يجب. يا لك  
من شيطان!

كنت أتوقع الهداية إلى الخير والنعيم، الخلاص. فهل أصفُ  
رؤياي، لكن جو الجحيم لا يمتلئ التراتيل! تحيلت ملايين المخلوقات  
البديعة، وموسيقى روحانية عذبة، والقوة والسلام، والمطامع النبيلة،  
ولست أدري ماذا أيضاً. المطامع النبيلة!

وما زلنا في الحياة! — لو أن اللعنة كانت أبدية! إن امرأ يريد أن  
يشوّه نفسه لمو امرؤ لعين حقاً، أليس كذلك؟ إني اعتقد أنني في الجحيم،  
إذن فأنا فيه. بهذا يتحقق ما جاء في التعاليم المقدسة. إني أسير  
معموديتي. أيا والديّ، أننا علّة نكيتي ونكبتكما. يا لي من بريء مسكين!  
— فالنار لا تعتدي على عبّة الأوثان.

— ولم نزل في الحياة! وفيها بعد، ستزداد ملذات الدينونة عمقاً.  
أسرعوا، اسعفوني بجريمة، كي أهوي إلى العدم، وفقاً لشرعة البشر.

صمتاً، بل صمتاً! .. إنه العار والتبكيك هنا: فما هو ذا إبليس يقول إن النار شينٌ، وإن سورة غضبي بلاهة مريعة - كفى! .. أباطيل يوسوس بها إليّ، وشعوذات، وعطور زائفة، والخان صبيانية. - مع أني أدرك الحقيقة، وأبصر العدالة: لي حكم فاصل سليم، ومُهَيَّأ للكمال. .. زهو وغرور. - أديم رأسي يحف. رحمتك يا ربي! إني خائف. ظمآن غاية الظمآن! لفتني على أيام الصبا والعشب والبركة فوق الأحجار وضوء القمر عندما يندق الناقوس الثانية عشرة. .. الشيطان في برج الناقوس في هذه الساعة. أيا مريم. أيتها العذراء. ..

- يا لحماقتي الشنيعة.

هنالك، أليست تلك نفوساً شريفة، تريد لي الخير؟ .. تعالوا. .. فمي مكتم، هم لا يسمعونني، بل هم أشباح. ثم إنه ما من أحد يفكر أبداً في غيره. لا تقتربوا. إني أفوح برائحة الشواء، لا شك في ذلك.

المهلوسات لا حصر لها. هذا ما كان دائماً نصيبي: فقدان الإيمان بالتاريخ ونسيان المبادئ. لن أبوح بكل سري: حتى لا يحسدني الشعراء وذوو الرؤى. إني مئات المرات الأوفر ثراء، فلنكن كالبهر كتماناً وتقتيراً.

عجباً! لقد توقفت عجلة الحياة. لم أعد في العالم. - اللاهوت ليس هزلاً، فالجحيم في أسفل حقاً، والسما في أعلى - نشوة، كابوس، رقاد في عَشٍّ من لُهب.

يا لدهاء أهل الريف في تيقظهم. .. إبليس، يا فرديناند، يطلق ساقيه للربيع بالبدور الوحشية. .. المسيح يمشي على شجيرات العليق

القرمزية دون أن يلويها... وقد سار على المياه المضطربة. المصباح أرانا  
إتياء واقفاً، أبيض بضفاثر سمراء، على جانب موجة زمردية...

سأكشف عن الأسرار جميعاً: الأسرار الدينية أو الطبيعية، الموت،  
الولادة، المستقبل، الماضي، الكون، العدم. إني أستاذ في فن الشعوذة.

اصغوا إليّ!...

لديّ كل المواهب! — ليس هنا أحد وهنا أحد: لا أودّ بعثرة  
كنزي. — أتريدون أغاني زنجية، حوريات ترقص؟ أتريدون أن أختفي،  
أن أغطس بحثاً عن الخاتم؟ أتريدون؟ بوسعي أن أصنع ذهباً، وأدوية  
شافية.

فلتؤمنوا بي، فالإيمان يعزّي ويهدي ويشفي. تعالوا جميعاً — حتى  
الأطفال، — لأعزيكم، ولأبذل لكم قلبي، — القلب الرائع! — أيها  
المساكين، أيها العمال! لست أطلب صلوات، تكفييني ثقتكم لأسعد.

— ولتذكروني، حتى لا أتحسّر على العالم. من حظي أن لم يشتد  
عذابي. ولم تكن حياتي، وأأسفاه، سوى طيش نزق.

أفم فلنعبس ونكشّر ونلو وجوهنا بكل ما وسعنا الخيال من  
كلمات.

من الجلي أننا خارج العالم. فما من صوت. وقد فقدت حاسة  
اللمس. واحسرتاه! على قصرتي وبلدتي وغابة سروري! العشيات  
والغدوات والليالي والأيام.. يا لكللي!

كان ينبغي أن أنال جحيمي جزاء غضبي، وجحيمي جزاء  
صلفي، — فضلاً عن جحيم الشهوة، جوقة من ألوان الجحيم.

إني أموت وهنا. ها هو ذا القبر، إني ذاهب إلى الديدان، يا  
للشناعة! أيها الشيطان، أيها المهذار، تريد أن تتحلل أوصالي، بفعل  
سحرك. إني أطلب، إني أطلب! ضربة مذرة، أو قطرة نار.

آه! العودة إلى الحياة! أن نلقي بأبصارنا على عوراتنا. ثم هذا  
السم، هذه القبلة اللعينة. اللعينة!

يا لضعفي، يا لقسوة العالم! رحمتك يا ربي، خبئني، لقد أفلت  
زمامي! - إني نخشى، وما أنا بمخشىء.

إنها النار يَسْتَجِرُّ أوارها واللعين في جوفها.





## هذيان!

العذراء الطائشة

والبعل الجهنمي.

انصتوا إلى اعتراف إحدى رفيقات الجحيم:

«أيها البعل السماوي، أيا ربي، لا ترفضن اعتراف أتعس  
خادماتك. إني ضالّة. إني ثملة. إني نجسة. ثبّا لها من حياة!

«عفواً أيها الرب السماوي، عفواً عفواً كم من دموع  
سكبت! وكم من دموع سأسكب، فيها أرجوا

«وفيا بعد سأعرف البعل السماوي! لقد ولدت خاضعة له.  
— أما الآن، فالبعل الآخر قد يضربني!

«إني الآن يا صديقتي في عقر الدنيا! صديقتي! كلا، لستن  
صديقتي.. ما عرفت قط مثل هذا الهذيان وذلك العذاب.. يا لها  
من حماقة!

«واواه! إني أتعذب، وأصرخ. إني في عذاب حقاً. مع أنه لم  
يبق ما أخرج منه، أنا المثقلة بازدياد أجدر النفوس بالزراية.

«ليكن! والآن فلأُبَيِّحْ لكم بسرِّي، حتى ولو اضطرتت للعودة إليه فيها بعد عشرين مرة، هو هو في كآبته وفي تفاهته!

«إني أمةُ البعل الجهنمي، ذلك الذي أهلك العذارى الطائشات. هو ذلك الشيطان بالذات. ما هو بطيف، وما هو بشيح. ولكني أنا التي فقدت الرشد، أنا اللعينة المهلكة في نظر العالم، - لن يستطيع أحد قتلي! كيف أصفه لكم! لقد فقدت حتى القدرة على الكلام. إني في حداد، أبكي، في هلعٍ. نسمة من الهواء، يا ربي، لو سمحت، من فضلك!

«إني أرملة... - كنت أرملة... - أجل، كنت جادة فيها مضي، وما ولدت لأصبح رمة!.. أما هو فكان لا يزال صبيًا. غير أن لطافه الغامضة أغوتني، فنسيت كل واجبي الانساني وتبعته. ويحها من حياة! الحياة الحقة قد توارت. لم نعد في الدنيا. إني أذهب حيث يذهب، هذا واجب: وكثيراً ما يتحامل علي، أنا المسكينة. يا للشيطان! - إنه شيطان لو تعلمون، وليس هو ببشر.

قال لي: «لست أحب النساء: إن الحب، كما نعلم، ينبغي أن يتكرر من جديد. فهنّ، النساء، لم يعد بوسعهن غير الرغبة في مقر أمين. فإذا ما حزنه غفلن الهوى والجمال، فلم يبق غير جفاء الأزدراء، مؤونة الزواج في هذه الأيام، أو أرى نساء، على وجوههن مخايل النساء، نساء كنت أستطيع، أنا، أن أجعل منهن خير الرفيقات، تفترسهن أولاً وحوش لها شعور النيران ملتهمة الزنادقة...».

«وانصت إليه وهو يجعل من العار مجداً، ومن القسوة سحرًا: «إني من أصل بعيد. فأجدادي من أقصى الشمال. كانوا يشقون



جوانبهم ويشربون دماءهم. - ولسوف أملاً بدني جروحاً وأغطيه  
بالرشم، كي أصبح كالمغولي قبحاً. سترين، سوف أعوي في  
الطرقات. أريد أن أجن هياجاً. أياك أن تربني حلياً، وإلا ارتقيت  
على الساط وتلويت. أريد ثروتي ملطخة بالدماء. ولن، لن أقبل  
عملاً. « وكثيراً ما طوبنا الليل سوياً، وقد استحوذ علي شيطانه،  
وكنت أعاركه! - وكثيراً ما يقف نخموراً لا يتزحزح وسط الطرق  
والديار، ليشير الرعب في قلبي. - «سوف يقطعون حقاً عنقي،  
وسيكون ذلك شنيعاً» ونحي من تلك الأيام، حيث يريد أن يسير  
مكللاً بهالة الاجرام!

«وأحياناً يتحدثني، بلهجة رقيقة، عن الموت الذي يجلب الندم،  
وعن المتكودين الذين لا ريب في وجودهم، وعن الأعمال الشاقة،  
وعن الفراق الذي يمزق القلوب. وفي الحانات حيث كنا نحتمي  
الخمر، كان يبكي إذ يتأمل من حولنا صرعى البؤس. كان يأخذ  
بأيدي السكارى المتعثرين في الطرق المظلمة كان يعطف عطف أم  
ماكراً على صغار الأطفال. - ثم ينصرف في رقه صبيّة ساعة الصلاة.

- وكان يتظاهر باحاطته بكل شيء، التجارة والفن والطب  
- فتبعته، كما يجب.

«كنت أبصر الزخرف الذي جمعه، في الخيال؛ حوله: الثياب  
والتحف والطنافس، بل لقد خلعت عليه من عندي سلاحاً  
ووجهاً آخر. كنت أرى كل ما يمسّه على نحو ما أراد  
أن يخلقه لنفسه وحين يعطل خيالي، كنت أتبعه وأرقبه  
في أفعال معقدة عجيبة، طيبة أو خبيثة: وقد نشأت  
مردخول دباه فلكنم من ساعات أمضيتها في الليل ساهرة، بجوار

جسده الراقد العزيز، أسائل نفسي عما يدفعه هذا الدفع إلى الفرار من الواقع. لم ينذر انسان نفسه قط لما نذر له نفسه. وأدركت، - دون أن أخشى شيئاً عليه، - أنه ربما كان خطباً جليلاً على المجتمع. - ففعلتُ لديه السر الذي يغير الحياة! لكنني قلت لنفسي: كلا، إنما هو يدور في البحث عنه على أن محبته مسحورة، وإني لربيقتها. وما كان لنفس غيري أن تملك من القوة، - قوة اليأس، - ما يكفي لتحملها، - حتى يسطر عليها جناحه ويطويها بحبه. ثم ما كنت لأستطيع تصوره في رفقة نفس أخرى: فما ترى حوله غير ملكيه، ولا ترى قط، - فيها اعتقد، - ملكي نفس أخرى. لقد كنت في قلبه كما لو كنت في قصر أنخلي من سكاته حتى لا ألقى فيه غلوقاً في مثل خستك: هذا كل ما في الأمر. كنت حقاً، وأسفاه، تابعة له. ولكن ما علمه كان ليريد بحياتي الخائرة الكابية؟ لم يزدني فضلاً، إن لم يجلب لي الموت! وأحياناً كان يستبد بي الأسى والحزن، فأقول له: «إني أفهمك»، فلا يجيبني سوى بهز منكبيه.

وهكذا مع تجدد أساي بلا انقطاع، وتزايد ضلالي في عيني - وفي عيني، كل من كان ليتفضل بالتحديق في، لو لم يكن يحكموا علي بالنسيان المطلق. - أخذ يشتد ظمائي إلى خيراته. بقبالاته وعناقاته الحميمة، كنت أنفذ حقاً إلى سماء، سماء حالكة، وددت لو تركت فيها فقيرة صماء خرساء عمياء، وبدأت ألف ذاك. كنت أرى نفسي ناسية كطفلين، تركا ليمرحا في جنان الشجن. كنا على وفاق، نعمل في نشوة معاً. ولكنه، بعد عناق أخاذ، كان يقول: «كَمْ سيبدو لك عجباً، بعد أن أفارقك، كل ما مررت به. عندما تفتقدن ذراعي تحت عنقك، وقلبي الذي تأوين إليه، وهذا النغم الذي يلثم جفنيك. فلا بد أن أرحل، بعيداً، يوماً ما. ولا بد أن أساعد في ذلك آخرين: هذا واجبي. ولو أني لا أشتهيه البتة. يا عزيزتي...». وعلى الفور كنت أحس بنفسي، بعد فراقه، فريسة

الدهول، هاوية إلى أرباب الظلمات: إلى الموت. فأخذت عليه العهد ألا يهجري. بل لقد أكد هذا العهد - عهد العاشق - عشرين مرة. لكن عهده كان من الهزل مثل ما كنت حين قلت: «إني أفهئك».

آه! ولم أكن قط غيرة عليه. ولا أعتقد أنه سيهجري. فما حله يصبح؟ وهو لا يعرف أحداً: ولا يريد أن يعمل أبداً. إنه يريد أن يمينا كالسائر وهو نائم. أفهل تكفي محبته وطيبته وحدهما جوازاً إلى واقع الحياة؟ وفي بعض اللحظات، أنسى الولهة التي انحدرت إليها: وأعلل نفسي. سوف يهبني القوة، وسنرحل، ونصطاد في الصحراء، ونرقد على جوانب الطرقات في المدن المجهولة، بلا رعاية ولا أشجان. أو لعلني سأستيقظ يوماً، وإذ بالقوانين والعادات قد تبددت - بفعل سحره - فخلتني الدنيا وهي على حالها، لشهواتي وأفراحي ولا مبالاتي.. آه! لو كافأني، فلنكم تعذبت، بما تصفه كتب الأطفال من حياة المغامرات. لكنه لا يستطيع. وإني لأجهل غايته. قال لي إن في قلبه حشرات وأشواقاً: لكن ذلك لا ينبغي أن يكون من شأني. أفهل يخاطب الله؟ لعله ينبغي أن أتوجه إلى الرب. إني في قاع الهاوية، ولم أعد أقدر على الصلاة.

وغيره شرح لي أشجانه، أفهل أفهمها خيراً من سحرياته؟ إنه ليحمل عليّ، ويصرف الساعات ليخجلني من كل ما شغل في الحياة قلبي. فإذا ما بكيت امتعض وتبرّم.

«- أرايت إلى هذا الشاب الأنيق يدخل البيت الهاديء الجميل: إنه يدعى ديفال أو ديفور أو أرمان أو موريس، لست أدري! لقد بذلت امرأة قلبها لهذا الخبيث الأبله: فلقيت حتفها، وهي الآن دون ريب قديسة في السماء. ولسوف تميتني مثلاً مات هو

تلك المرأة. ذلك هو مصيرنا نحن المحسنين الأبرار... وأسفاه!  
 في بعض الأيام كان يرى الناس الناشطين جميعاً الأعيب تحركها  
 نزوات مسخاء: فيضحك ضحكاً متواصلاً مريعاً. — ثم يعود فيحنو  
 عليّ كأم شابة أو أخت حبيبة. ولو كان أقل وحشية، لنجونا! ولكن  
 لطفه أيضاً قاتل. وأنا بين يديه. — ويحي! إني لمجنونة!

«ولعله سيختفي يوماً بأعجوبة: ولكن ينبغي أن أعلم، إذا  
 كان سيرتفع إلى السماء، لأشهد شيئاً من صعود الحبيب».

يا لها من رفقة!

## هذيان ٢ كيمياء الكلمة

أما عن نفسي، فهاكم شيئاً من هوسي:

زهوتُ منذ أمدٍ بعيدٍ بقبضتي على جميع آفاق الحياة والخيال،  
ولم أضمر لأعلام الشعر والفن في هذا العصر غير الأزدراء.

ولعت بالتصاوير السخيفة، والنقوش فوق الأبواب، وزخارف  
المهرجين، والتزاويق الشعبية، وبالأدب الذي عفا عليه الزمن، ولاتيني  
الكنائس، والكتب الفاحشة المحشوة بأغلاط المهجاء، وحكايات  
جدات جداتنا، وقصص الجنّيات، وكتيبات الأطفال، والأوسرات  
العتيقة، والأغاني السقيمة، والألحان الساذجة.

وحلمتُ بحروب جهاد، ورحلات كشف لم تُرو، وجمهوريات  
ليس لها تاريخ، ومعارك دينية قُمعت، وثورات في العادات  
والتقاليد، وتنقلات شعوب وقارات. آمنْتُ بسحري المفاتن جميعاً.

واخترعتُ ألواناً للحروف المتحركة! — فالألف سوداء، والواو  
زرقاء، والياء حمراء — وسويت أشكال الحروف الصائتة وحرّكتها،  
وبايقاعات غريزية، تباهيتُ بابتكار لغة شعرية ستصبح يوماً في  
متناول جميع الحواس. وبقيت الترجمة.

وبدأت بدراسة كتبت السككات والظلمات، ودوّنت ما لا  
يوصف، وسجّلت دوار النشوات.



بعيداً عن الطيور والقطعان والقرويات،  
ما علّني كنت أشرب، جائئاً في هذا الخلاء،  
وسط أشجار البندق الغضة،  
في ضباب عصر دافئ أنحضر؟  
وماذا كان بوسعي أن أشرب في هذه البقاع،  
— دردار بلا صوت، عشب بلا زهر، سماء مكفهرة! —  
من هذا اليقطين الأصفر بعيداً عن خصي العزيز؟  
شراب من ذهب يعصب العرق.

كنت أشبه بلافتة حانٍ مريّة،  
— وهبت عاصفة فاكتمحت السماء. وفي السماء  
ضاعت مياه الغابة على الرمال العذراء،  
وقذفت ريح الله المستنقعات بجليد؟

وبينما أنا أبكي، أبصرتُ الذهب — فما استطعت أن  
أشرب —



في الصيف حتى الرابعة صباحاً،  
نومة العشق تدوم،  
ويفوح تحت الخمائل  
أريج وليمة المساء.

هناك في المتجر المتسع  
تحت شمس «المسبريد»،  
قد شمر الصنّاع عن السواعد،  
بل شرعوا يتجرون.

هادئين في صحرائهم الطحلبية،  
يعدّون للسقائف البهية،  
حيث المدينة،  
ستنقش سماءات مزيفة.

آه، من أجل أولاء الكادحين،  
رعايا ملك بابلي فاتنين،  
فأزقي أيا ربة الحبّ العاشقين،  
ذوي القلوب المتوجّه.

أيا ملكة الرعاة!  
احملي للصنّاع ماء الحياة،

كي تظلّ قواهم في سلام  
في انتظار حمام البحر في الظهيرة.



وكان للصيغ الشعرية العتيقة نصيب كبير في كيميائي اللغوية.

وتعرّدت الملوسة الصرّف: فأبصرتُ جلياً مسجداً في مكان  
مصع، ورأيت مدرسة للطبالين تنشئها الملائكة، وعربات تجرّها  
الخيول تخرق مسالك السماء ويهواً في قاع بحيرة، ثمّ الغيلان،  
والطقوس السرية، وقد يكفي عنوان فودفيليه ليثير أشباحاً مفزعة  
أمام ناظري.

ثمّ شرحت سفسطائي السحرية يهلوسة الكلمات!

وانتهيت فرايت خللي أمراً مقدساً. كنت عاطلاً،

فريسة حمى قاذرة: فحسدت البهائم في نعيمها، — واليرقات  
التي تمثل طهارة الأعراف، والمناجذ، وغفوة العذرية!

واحتدّ طبعي. فقلّك وداعاً للعالم في ضروب من  
الرومانسيات:







## أغنية البرج الأعلى

فليقبل، فليقبل  
الزمن الذي نتعشقه

لكن صبرت صبرا  
لن أنساه للأبد،  
الآلام والمخاوف  
في الهواء تبخرت  
والظلمة المذنس  
يعكّر دمي.

فليقبل، فليقبل  
الزمن الذي نتعشقه

مثل المروج عليها  
النسيان انسدل،  
نمت وازدهرت

بالبخور والزَّوَان،  
يطن فيها طينياً  
ذباب قذر

فليقبل، فليقبل  
الزمن الذي نتعشقه

واغرمتُ بالصحراء والبساتين المحترقة والخوانيت المندثرة  
والخمور الماسخة. وتسكعتُ في الأزقة التنتنة، ووهبتُ نفسي،  
مغمض العينين، إلى الشمس، إله اللهب.

«أيها القائد، إن كان قد بقي مدفع عتيق بين حصونك  
المحطمة، فاقلدنا بجلاميد. واقلدْ زجاج المتاجر الفاخرة! —  
والقاعات حيث يجلسون! أطعم القوم الرغام، ودس السم في  
الشراب، واحشِ المخادع ببارود ياقوت متقد..»

وبمها بعوضة تحوم نشوى فوق مبرة الحان، ولهى برشمها،  
ويكفي شعاع ليبيدها!

## جوع

إذا اشتهيت، فما اشتهي  
سوى الأرض والحجر.  
طعامي من الهواء دوماً،  
ومن الصخر والفحم والحديد

يا جوع دُر، ارعَ يا جوع  
كلَّ القشور،  
وانتزع من متسلقات الفروع  
بيج السموم.

كل الحصى المهشم  
وقديم أحجار المياكل؛  
متخلف الطوفان من حصبه  
خبز منشور في الوادي القاحل



الذئب تحت الغصون عوى  
وهو ييصق الريش المؤتلق  
بعد أكلته من الطيور:  
وكالذئب اني أحترق.

الخضروات والفاكهة  
لا تنتظر غير القاطف  
لكن العنكبوت  
لا يأكل غير العوسج.

فلأرقد أو اشتعل  
على مذبح سليمان.  
الحساء على الصدا جرى،  
وامتزج بالبحر الميت.

وأخيراً، يا لغبطتي وحكمتي، نَحَيْتَ عن السماء لأزوردها،  
الذي هو أسود وعشت، ومضة ذهبية، بالنور الطبيعي. ومن  
بهجتي، تصنعت المجون والتهيان بقدر ما استطعت:

وجدتها!  
ما هي؟ الأبدية.  
إنها البحر مختلطاً  
بالشمس.

روحي الخالد،  
حافظ على عهدك  
بالرغم من عزلة الليل  
والنهار المتقد.

وبذا تنعتق  
من أحكام البشر  
وعاميّ الفتن  
فتطير على حسب...

... اياك والأمل  
لا d'orientur  
علم وصبر  
العذاب حُتم.

لم يعد ثمة غد،  
جر لطيف الملمس،  
توقّدك  
هو واجبك.

وجدتها!  
ما هي؟ الأبدية  
إنها البحر مختلطاً  
بالشمس.

واضحيت أوبرا أسطورية: فرايت أن الخلق جميعاً محكوم عليهم بالسعادة: والنشاط ليس هو الحياة، وإنما هو أسلوب في الاخلال ببعض القوى، اختلال عصبي والأخلاق هزال في الانحماخ.

وتراى لي أن لكل مخلوق حقاً في عدة حيوات أخرى. فهذا السيد يجهل ما يفعل: إنه مُلْك. وهذه الأسرة ذرية كلاب. وقد تحدثت أمام العديد من البشر، بصوت مرتفع، مع لحظة من إحدى حيواتهم الأخرى — ومن ثم، أحببت خنزيراً.

لم أغفل أية واحدة من سفسطات الجنون — الجنون الذي يسجن — : وفي قدرتي أن أتلوها جميعاً، فلنأحفظ طريققتها.

وتعرّضت صحتي للخطر. وأقبل عهد الارهاب. فكنت أهوي في غفوات تدمر أياماً، فإذا ما استيقظت، لم تنقطع أحلامي البالغة التعاسة. ونضجت للموت، فقادني ضعفي، خلال طريق تحفّ به المهالك، إلى تخوم العالم والسيرية، موطن الظلمات والأعاصير.

فكان لا بدّ أن أرحل، لأفرّج عن ذهني ما توطأ عليه من غوايات. وفي وسط البحر، الذي أحببته كما لو كان سيظهرني من نجس، رأيت اشراقة الصليب وأهب العزاء. وكان قوس قزح هو الذي جلب عليّ اللعنة. غير أن النعيم كان قدرتي المحتم، كان دودتي ووسواسي: فحياتي ستظل دوماً أحفل وأرحب من أن تُكرّس للقوة والجمال.

يا للنعيم! لقد كثر لي عن نابه، الحلوة عند الموت، ساعة صياح الديك، من matutinum حتى Christus venit — في أحلك المدن:



أيا فصول، أيا قصورا!  
أيّ نفس بغير عيوب؟

قمت بدراسة سحرية  
للسعادة الحتمية

تحية له كل مرة  
يصبح فيها ديك الجنوب.

آه! لن تبقى لي شهوة!  
إذْ تولى هو أمري.

استحوذ السحر عليّ  
فبدد كل جهد.

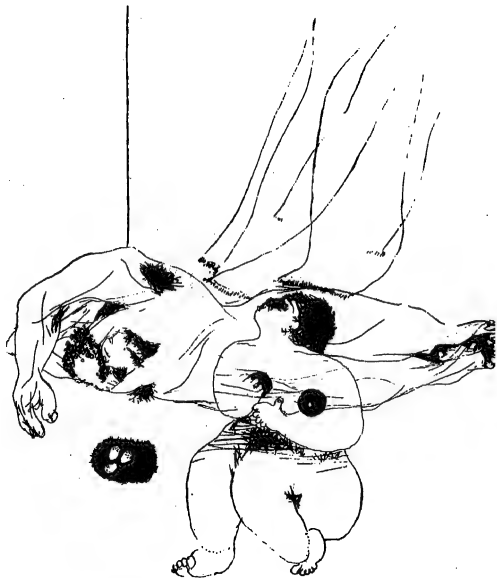
أيا فصول، أيا قصورا!

ساعة الفرار ويحي!  
ستكون ساعة حتمي.  
أيا فصول، أيا قصورا!

✱

وقد مضى كل ذاك، وتعلّمت اليوم تحية الجمال.







## المستحيل

آه! لحياة صباي، الطريق المطروق في جميع الأجواء، رصبي  
فوق الطبيعة، أخلص طوية من خير الشحاذين، فخور بالتجرد من  
الأوطان والصحاب، ما أبلهها من حياة. — واليوم فقط أدركت  
ذلك!

— كنت على حق في زرايتي بأولئك القوم الذين ما كانوا  
ليفتلون فرصة قبلة أو عناق، المتطفلين على نظافة ونضارة نسائنا،  
وهن اللواتي أصبحن اليوم معنا على أقل وفاق.

لقد كنت على حق في كل ما ازدريت: ما دمت قد هربت!

أنا هارب

دعوني أشرح الأمر.

بالأمس، عدت أتتهد: «يا لنا من حشد من الملاعين في هذه  
الدنيا! إنني من زمن طويل في زمريهم. وأعرفهم جميعاً. كل منا يميز  
الأخر، إذ كل منا ينفر من الآخر. وكلنا يجهل المحبة. ولكننا  
متهذبون؛ فصلاتنا بسائر الناس لا غبار عليها. أهذا يثير الدهشة؟  
الناس! التجار، الأغراار! — لم نوصم بعار. — لكن الصفوة من

المختارين، كيف سيستقبلوننا؟ فثمة جفأة فرحون، مختارون زائفون،  
ما دام الاقتراب منهم يتطلب الجسارة أو التذلل وهم وحدهم  
المختارون. وما هم نحن بمنحون البركات!

والآن وقد عاد إلي درهمان من الحكمة — لن يدوم هذا  
طويلاً! — فإني أرى أن مصدر متاعبي أنني لم أنتبه من قبل إلى أننا  
نعيش في الغرب. في المستنقعات الغربية وليس ذلك لأنني اعتقد أن  
النور قد تلوّث، والقلب قد تهلّهل، والحركة قد انحرفت...  
حسنًا! وما هو ذا ذهني يطلب في اصرار أن يتولى أمر التطورات  
القاسية جميعها التي انتابت الروح منذ انبهار الشرق... إن ذهني  
لمشتاق!... ها قد نفذ درهمي من الحكمة! — إن الروح لطاغية،  
وإنها لتريد أن اظّل في الغرب. فلا بدّ من كتم أنفاسها حتى تنتهي  
إلى حيث أردت.

— وبعثت إلى الجحيم بأكاليل الشهداء، وأنوار الفن، وزهو  
المخترعين، وحيّة النهابين؛ ورجعت إلى الشرق وإلى الحكمة الأولى  
السرمدية.

— لكن يبدو أن هذا هو حلم خامل كسول!

ومع ذلك، فما منيت نفسي قط بلذّة الزوغان من شقاوات  
العصر.

— ولكن أليس ثمة عذاب حقاً، في أنه منذ اعلان العلم  
ذاك، المسيحية، والانسان يعبث بنفسه، يأتي لنفسه بالبراهين على ما  
لا يحتاج إلى برهان، ويتلذذ بتكرار هذه البراهين، ولا يعيش إلّا

كذلك؟ تعذيب رهيف، أبله، وهو مصدر زيفي وضلالي. إن الطبيعة قد يتولاها السأم، ربما!.. لقد ولد السيد «برودوم» مع السيد المسيح.

ليس ذلك لأننا نزرع الضباب. إننا مع الخضر نلتهم الحمى. وماذا عن الخمر! والتبغ! والجهل! والتفاني! — أهدأ كله غريب عن حكمة الشرق، الموطن الأول؟ وما حاجتنا إلى عالم عصري، ما دامت مثل هذه السموم تخرع!

سيقول الكهنة: فهمنا. لكنك تقصد جنة عدن. ولن نجد شيئاً يعينك في تاريخ شعوب الشرق. — وهذا حق؛ إنها الجنة ما ابتغيت. فماذا يجديني عن طهارة الأقدمين!

وسيقول الفلاسفة: ليس للعالم عمر. كل ما في الأمر أن الإنسانية تنتقل. إنك في الغرب، لكنك حر في الإقامة في الشرق الذي تريد، مهما يكن قدمه، — بل وتستقر فيه. فلا تستسلمن للهزيمة أيها الفلاسفة إنكم من صلب الغرب.

احترس، يا ذهني. أياك والتدابير المتسفة في سبيل الخلاص. اقدح زندك. — واحسرتاه من بطة خطي العلم!

— لكنني لاحظ أن ذهني قد هجع.

ولو أنه ظل متيقظاً من هذه اللحظة، لوصلنا بعد قليل إلى الحقيقة، التي ربما كانت ترفرف حولنا بملائكتها الباكية!..

— ولو كان قد ظل متيقظاً حتى هذه اللحظة، لما استسلمت،

من زمن سحيق، الغرائز الوخيمة! . . . — ولو أنه كان دائم الیقظة،  
إذنْ لسبحت في بحار الحكمة! . . .

يا للصفاء! الصفاء!

إن هذه اللحظة من الیقظة هي التي وهبتني رؤيا الصفاء!

— فبالروح تصل إلى الله!

حظ عائرا







## البارقة

العمل البشري! إنه الانفجار الذي يضيء إلى حين ليل  
المدلهم.

«لا شيء عبث؛ فألى العلم، وإلى الأمام!» هكذا يصبح  
الكاهن العصري، أي كل الناس. ومع ذلك تحتم جثث الأشرار  
والتناقلة فوق صدور الآخرين... آه! اسرعوا، اسعفوني بقليل؛  
فهناك، عبر الدجنة، تنتظرنا المثوبة الأبدية... فهل نضيّعها؟..

— ماذا أستطيع؟ لقد خبّرت العمل؛ والعلم وثيد وثيد  
الخطي. أمّا أن الصلاة تركض والنور يزججر... فهذا ما أعرفه خير  
المعرفة. إنه أمر هين والقيظ شديد؛ فليستغنوا عني. لديّ واجبي،  
وسأزهو مثل الكثيرين، بطرحه جانباً.

حياتي قد رثت. فلهلموا! لنداج وتبالد، ويحنا! ثم نعيش  
لاهين، حالمين بصبايات مهولة وعوالم باهرة، متذمرين متطاحنين  
حول مظاهر الكون، مهرجين، شحاذين، فنانين، قطاع طرق، —  
كهنة! على فراش مرضي عاودتني رائحة البخور عابقة قوية؛ حارس  
الطيوب المقدسة، كرسي الاعتراف، والشهيد...

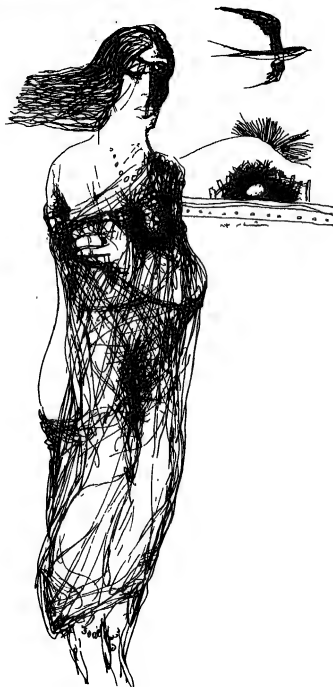
إني لأتّين في ذلك سوء تربيتي صبيّاً. ثمّ ماذا!.. هل أمشي

في العشرين، إذ يمشي في العشرين غيري .

كلا! كلا! إني اليوم ساخط متمرد على الموت! والعمل أهون  
من أن ترضاه كبريائي . إنه سيجعل من حياتي للعالم عذاباً قصير  
الأجل في اللحظة الأخيرة، سوف أسطو على اليمس وعلى  
اليسار . .

— اه —

وبذلك، أيا أيتها النفس العزيزة المسكنة، سوف لا يحسر  
الأبدية!





## صباح

ألم يحدث أني كنت يوماً فتي ظريفاً، مقداماً، تسطر سيرته  
الرائعة على صفحات من ذهب، — مفرط الخطأ! فأني وزر ارتكبت،  
أي خطيئة اقترفت، حتى استحققت كبوتي الراهنة؟ يا مَنْ تزعمون  
أن الحيوانات تنحدر من مآقيها دموع الأسى، وأن بعض المرضى  
يستبد بهم اليأس، وأن الموت ينزعجون بالأحلام، حاولوا أن ترووا  
قصة سقطتي ورقادي. أمّا أنا، فما أستطيع الانفصال خيراً من  
الشعاذ الذي لا يكف عن التمتة. يا رب، يا مريم... لم أعد  
أستطيع الكلام!

على أني أعتقد أني قد أتممت اليوم قصة جحيمي. كان هو  
الجحيم حقاً؛ الجحيم القديم، ذاك الذي فتح ابن الانسان أبوابه.

من الصحراء ذاتها، إلى الليل ذاته، تفتتح دائماً عيناى  
الكليتان على النجم الفضي، دائماً، دون أن ينهر به ملوك الحياة،  
المجوس الثلاثة، القلب، والروح، والذهن. فمضى سنروح لنحتفي،  
فيها وراء القفار والمضارب، بمولد العمل الجديد، والحكمة الجديدة،  
بقرار الطغاة والأبالسة، بنهاية الخزعبلات، ونحتفل — أول الناس!  
— بعيد الميلاد على الأرض؟

ترانيم السموات، وتقدم الشعوب! نحن العيد، ينبغي ألا  
نلن الحياة.







## وداع

أقبل الخريف! — ولكن لماذا نتحسّر على شمس أبدية، ما  
دعنا في سبيل الكشف عن البهاء الالهي، — بعيداً عَمَّنْ يموتون عند  
نهاية الفصول.

الخريف. شراعنا السابق وسط الفباب الساكن ينحرف نحو  
مرقا الشقاء، المدينة الشاسعة ذات السماء الملطخة بالنار والوحل. آه  
الأسمال العطنة، والحبز المتبل بالمطر، والخمر، والألف صبابة التي  
صلبتني! أما من نهاية هذه «الغولة» ملكة الملايين من الأرواح  
والأجساد الميتة، والتي ستسأل يوم الحساب! أعود فأرى نفسي وقد  
تأكل جلدي بالوحل والطاعون، وزَعَت الديدان في رأسي وتحت  
ابطي، مع ديدان أكبر في قلبي، الممتد بين مجهولين لا عمر لهما، ولا  
عاطفة... كان يمكن أن ألقى في ذلك حتفي... يا للخاطر  
المرعب! إني لأتشعر من البؤس.

## واخشى الشتاء لأنه فصل الراحة!

— وأحياناً أرى في السماء شواطئ لا نهاية لها تغصّ بأهم  
بيضاء مسرورة. وأرى من فوق مركباً ذهبياً ضخماً تحفّظ رايته  
المتعددة الألوان مع نسيم الصباح. لقد ابتدعت الأعياد جميعاً،

وأكاليل الغار جميعاً، والدرامات جميعاً. وسعيت لابتكار أزهار  
جديدة، ونجوم جديدة، وأبدان جديدة، ولغات جديدة. وحسبت  
أنى اكتسبت قدرات خارقة. والآن! عليّ أن أدفن خيالي وذكرياتي!  
مجد شاعر وراي تدرّوه الرياح!

أنا! أنا الذي حسبت أنى عرّاف أو ملاك، وأنى معنى من  
قواعد الأخلاق جميعاً، ها أنذا قد هويت إلى الأرض، وأمامي  
واجب أسعى إليه، وواقع وعر عليّ أن احتضنه! فلاح!

هل أخدع نفسي؟ هلأ سألقى مع المحبة حتفي؟  
ليكن، سأطلب المغفرة إذ تقوّت بالضلّل. هلموا.  
ولكن، ما من يد صديقة! فأين ألتمس الغوث؟  
أجل، الساعة الجديدة هي على الأقل شديدة الصرامة.



إذ بوسعي القول إنى أحرزت النصر: صرير الأسنان، وفحيح  
النيران، والتهديدات الكريمة أخذت تهدأ. والذكريات الزرية جميعها  
أخذت تمحي. وحسراتي الأخيرة تندثر، — غيرتي من الشحاذين  
وقطاع الطرق وأصدقاء الموت والمتخلفين من جميع الأنواع. — أيها  
الملاعين، ماذا لو انتقمتم.

يجب أن نكون عصريين إطلاقاً.

لا ترانيم: فلتتمسك بما كسبناه. ليلة قاسية. الدم الجاف  
يدخن على وجهي وليس ورائي غير هذه الشجيرة الشنيعة... لا  
تقل معركة النفس عن معركة البشر وحشية؟ لكن رؤية العدالة متعة

الله وحده .

على أننا لم نزل في العشية . فلتلق كل نفحات القوة والحنان  
الحقيقي وعند الشفق، سندخل، مسلحين بصبر متقد، المدن  
البهية .

وما حاجتي إلى يد صديقة! مزية عظيمة، أنْ بوسعي أن  
أضحك من الصبايات الكاذبة القديمة، وأنزل العار بأولئك الأزواج  
الكاذبين، — لقد رأيت جحيم النساء هناك؟

— وسيتاح لي أن أمتلك الحقيقة في روح وجسد .

(ابريل — أغسطس ١٨٧٣)



General Organization Of the Alexan-  
dria Library (GOAL)

*Bibliotheca Alexandrina*







## فضل في الجحيم

■ عاش حياة قصيرة حائرة ثائرة. شاعر ملهم يصبح جندياً، فتاجراً، فرحالة، وشيطان الهروب يحثه باستمرار على تغيير مهنته والبحث عن المستحيل والغريب في حين أن شعلة المستحيل تحترق داخل نفسه، ترى عما كان يبحث ؟ الجواب السريع هو نفسه، ولكن الواقع أن بحث هذا الشاعر الذي أثر في كل الشعر الأوروبي الحديث هو بحث عن أسلوب في الحياة يسمح له بمطلق الحرية ومطلق الصدق. وربما المهم في كل ذلك أنه كان يبحث عن الصدق من خلال صيغ مختلفة خائنه كل منها بدوره، لأن الصدق بالنسبة لرامبو لم يكن المواجهة الصريحة المخلصة مع الواقع إنما الغوص في أعماق النفس والبحث فيها عن مناظر لم ترها العين المجردة، وعن أصوات لم تسمعها الأذن. فالشعر عنده سجل لحلم خاص.